SCANNED BY
JAMAL HATMAL

المتحمّسون الأوغاد

مدونة ابو عبدو

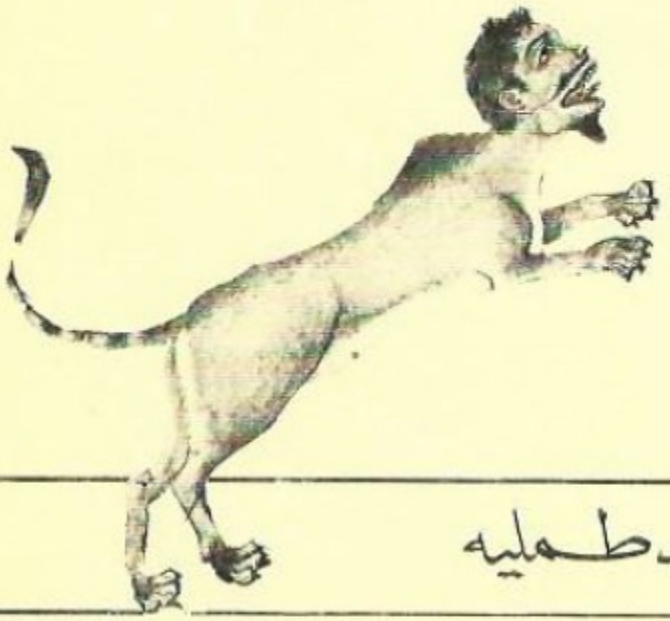

محمّد طمليه

اهـــداء :

الـــى جمـــال مســـاعدة

الراحة على فراش من قلق

(بقلم سالم النحاس)

٥

الاخ الصديق محمد طملية

نتحدث كثيرا عن اشياء متعددة، باستثناء القصة العربية في الاردن. ونكاد حين نلتقي، لا نتحدث سويا عن قصصك، رغم انني اراها في طور البناء ومن ثم في الصحف، واحس الان، في هذه الهدأة، انه يتوجب علي ان اقول فيها كلمة دون ان ابحث عن سبب. فالمطر في الخارج يضج باعلان بدء الموسم القادم، وابتسم له خلف عربي مستلما الرسالة فرحا بها، ومتأكدا بأن صباح الغد الذي لا تتعسر به الدنيا من كثرة ما ولدته، سيكون صحوا رائعا على بلل، مضمخا برائحة التراب. وساسرع مرغما الى اقرب شجرة لارى كيف تلصف اوراقها بالرغبة في الوجود، واداري عندي رغبة دائمة بأن اتعرى في المطر مثلما تتعرى شخصية فريدة مكتملة في قصة او رواية دون اعذار او اسباب، فقط لانها

تعبق برائحة الحياة، وتزدهي بقوة اكتمالها، او الحلم باكتمالها القادم. تماما مثل هاجس «الولد» في قصة «الاحذية»، ان متأكد انه لن يعود الى الحذاء بعد مرور السنوات: «ساعود إليه عندما اكبر» وان فعلها بدافع حب الاستطلاع، فانه عندئذ كمن يحفر بحثا عن جثة. سيجدها متحللة مثل احلامنا الصغيرة دائما، لا تتحقق عندما نكبر. وبالطبع انت تعرف اننا نتساهل.

• هل ان اتكلم عن «حالي» واترك ما بدأته بهذه الرسالة. ربما كان السبب في ذلك هو القصص التي بين يدي مجتمعة وكأنها جاهزة للطباعة. فالقصص تقدم حالات وجدانية مكثفة، لكأنها شعر، بل هي شعرية دون مجاملة. وعلى الرغم من اختلافي معك في شيء ما بين قصة واخرى، فانني اعترف ان القصص نفسها قصائد. والا فما هي مهمة الفن ان لم يقدم لك حالة وجدانية غنية بالتجربة الناضجة؟ ويبقى على المتلقي ان يوائم نفسه مع العالم الفني ضمن اشتعال شيء ما في الروح. ويكون العمل الفني ناضجا اذا اشعل شيئا ما في الروح. من هو الشخص غير القابل للاشتعال حين يستمع لقول «لوركا»:

يا الخسارة

لم يعد هنالك غجر

يصعدون الجبل

هذه بعد مرة اخرى عن القصص. فمثلاً. ففي جو المطر في الخارج تتداعى كل الاشياء، وتتضح الطبيعة بقلق حاد. ولعل التحدث عن القصص جزء من هذا القلق، وهو ما تفرضه القصص نفسها. الا ان ما يمكن ان يقال عنها انها قصص تبحث عن الراحة على فراش من قلق دائم (سوف افصل ذلك في بعد). ولكني اقف حاذرا امام هذه الروح ... الروح القلقة التي تبحث عن الراحة والسلام. وقلقي نابع من عاملين، الاول: هو انني لا افصل بين الكاتب والنتاجه، واكاد لا اجد في صرخة بطل قصة «الضجيج» وهو ينادي: «احمد آآآآده» سوى الامتلاء الوجداني بانه لن يجده ولن يرد عليه احد. وهذا ما يحسه المتلقي. والثاني: انني اشم في هذه الصرخة ما لا احبه لمحمد، فلكأنه يقول انني كتبت ما لدي ولم يعد ثمة ما يقال. وها هي الخاتمة: صرخة في قلب الشارع لا يرد عليها احد.

ورغم انني من انصار العمل على انتاج ادب جماهيري، بكل ما يحمله هذا التعبير التقليدي من ابعاد. الا انني اتفق معك، على ان الروح القلقة موجودة عند كل من يجرؤ على ان يترك رئتيه تتنفسان، وان يعيش هذه الحياة بكل ما فيها من تضاد وعلى جميع الاصعدة. وانني ارى ان الاشارة لهذا القلق امر لم يستطيع احد غيرك في رابطة كتابنا ان يمسك به. ولا تأتي الميزة من هذا قدر ما تأتي من ذلك الرجل الذي لا يعرف النوم، ومع ذلك فانه يهبط الى الشارع ليبحث عن «جلدة» لوقف القلق، ولكنه يجد ان الشعب كله يفعل ذلك. بقي ان نتساءل، ليس من خلال القصص ولكن من خلال الرؤية الفردية لكل قارىء: هل سيتلمس -

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

القارىء ـ قلقه؟ ايضايقه هذا القلق؟ وهل يهبط الى الشارع للبحث عن الراحة والسلام؟ ان هذا هو التحدي الذي تلقي به في وجه القارىء بغض النظر عن مادة القلق او شكله او اسبابه. ان الفن الذي لا يثير البركة الراكدة في الروح ليس فنا، ولا احسب ان الادب الجماهيري بعيد عن هذا. فليس المهم ان تقول للناس بأنكم عاجزون او ابطال. المهم ان تفتح لهم باب الامل والتجاوز، وباب امكانات البطولة المتاحة دائما. ففي قصة «الخوف» لا بد ان يتساءل القارىء، مثلما اتساءل انا الان: هل سادعوهم للهرب مثلما تدعو القصة، ام سانتصر على خوفي؟؟. او هل اهرب مثلما هربوا جميعا؟ من المؤكد انني ساعالج خوفي. ومن المؤكد انني انا شخصيا لن اهرب. وهذه على اية حال تجربة ابتسم لها، ولكن حين تصبح نداء عاما فانها توجع قلمي.

ربما استطيع الان ان ادخل في التفاصيل، اعني تفاصيل البحث عن الراحة والسلام فوق فراش القلق: هذا القلق الوجودي الذي يحاول ان يختصر تجربة الانسان فيما هو ابعد من الممارسات اليومية في الحياة المعاشة. واذا نظرت الى اية قصة من القصص، تدرك ما اقوله، وتحس به مثلما احس انا بالمطر الان وهو يداهم الاسفلت ويجتاح اوراق الشجر ويخيم فوق اعمدة النور ببهاء ورواء فذ وينقر على الشباك عازفا يطلب الدفء والراحة. في قصة «المتحمسون الاوغاد» تنطلق بوادر القلق الوجودي حين تقرر النملة الضجرة انها «فقدت عنصر الدهشة في حياة رتيبة لا جديد فيها... ان حبوب القمح متشابهة حتى ليخيل الي انني نقلت حبة قمح واحدة طوال حياتي» ثم يتطور عمق هذا القلق حين نلاحم

انه ليس احساسا ضد العمل المقدّس كما تزعم رفيقاتها، وانما هو ايضا ايغال في فهم التقدم نحو الموت: «يعملون ليل نهار كأنهم خالدون الى الابد. انهم يزدادون سمنة فحسب، ومع ذلك فالموت يبتلع الجميع اخيرا». وما ان يتم الاعلان عن وجود القلق «لفصيل النمل» حتى يتقرر انه «ينبغي ان لا تظل هذه النملة الفوضوية بيننا بعد الان». فأي مصير هذا . . صحيح ومحتوم.

وتلك مأساة فردية ولكنها تحدث دائما حينما يكون هناك من يرى اكثر ويقع في انياب الضجر، علما بان البحث عن مخرج هنا لا يتعدى الاعلان ولا يتجاوزه، سوى وصفها بانها متمردة، وهي تشيح بوجهها معلنة انهم «متحمسون اوغاد». والمخرج من وجهة نظري هو ان نحارب الموت ولا نستسلم له. ولا حرب له الا بالعمل. ولكن ان تدعو النملة زميلاتها للعمل بهذه الطريقة الميكانيكية ايضا فهو امر غير مرغوب فيه. لكأن القصة ادانة للجانبين. لان الحياة رحبة واوسع من هذا الضيق.

الا ان هذا القلق نفسه يبدو اكثر عمقا وتجذرا في الروح في قصة «الكابوس». «لقد تملكني صوت القطرات المتساقطة حتى خلت ان الضجيج الناجم عنها يكاد يصم اذني». وفي ذات الوقت تتقدم نحو الحل وتخرج البطل ليبحث عن جلدة للحنفية لكي يوقف تساقط القطرات في هدوء الظلمة. الا ان ما يثير القلق اكثر هو انه لا يجد جلدة في السوق بل يجد الجميع يبحثون عن نفس الحل، وتواجههم ايضا لافتات شديدة القسوة «نرجو عدم الاحراج، لا يوجد لدينا جلد حنفيات». لكأن بهذا

نفي كامل لامكانية وجود حل او اعلان بعدم الجدوى من البحث عن السلام والراحة... وبأنه لا يوجد في حياتنا الا هذا القلق الطاغي والمعمم. انت لا تقول هذا بمعنى سد الطريق، فليس المطلوب من الفن ان يقدم لنا المعرفة فقط، بل ايضا ان يفتح للمتلقي ان يرتد لتجربته الذاتية والعامة ويستخلص منها دروسه الخاصة وربما بمنهج فني وعلى قدر نجاح القاص في العرض الجمالي للمعرفة.

وفي قصة «المدينة» توقع ابن الثلاثين، في فخ الوهم العام، بأنه عجوز ويراد له بان ينسى «ان السماء ما زال بمقدورها ان تمطر». وترينا ان الوهم بالجو العام يمكن ان يؤدي بالناس الى تصديق الوهم والتعامل معه على انه حقيقة..... «تراجعت مذهولا الى الوراء ورأيت صورتي في المرآة، فوقعت ارضا» ..... وبأتي خلق هذا الوهم على قاعدة من القلق العام الذي ارتاع منه الناس جميعا في البيت والشارع وكل مكان حتى في السجن، ويجتمع كله فيك كأنك ضمير جماعي تركز على الرفض منذ اللحظة الاولى.... ويبقى على المتلقي ان يستمر بهذا الرفض او يقبله، والتجربة من داخل القصة نفسها تدعو الى مزيد من الرفض على قاعدة خلق جو معادل للقلق وهو القهر والقمع والاشمئزاز.

وفي قصة «الخوف» الذي يتحول الى طاعون، سيتكون عند القارىء خوف جديد هو الخوف من «الخوف»، وعليه ان يقرر من الان هل سيستجيب لو سمع نداء مشابها «باهرب»، خصوصا وان النداء في القصة لا مسبب له سوى القلق، ام سيصرخ بالناس ان «اهربوا جميعا»؟

. . . . وتلك مسألة تبقى مفتوحة كاختيار دائم امام الروح الفردية.

وفي قصة «الجوارب» لا يتضح اي سبب للقلق سوى غسيل الجوارب والملابس الداخلية، وتلك العلاقة القائمة بين اثنين احدهم راض وجد السلام والراحة في هذا العمل الرتيب والاخر رفضه دون مبررات، الاول تدجن والثاني يرفض هذه الحالة. وكأن القلق ونقيضه موجودان في القصة ولكن لا غلبة لاي منهما على الاخر مما يزيد المتلقي قلقا على قلق.

وفي قصة «اكتشاف» ترتفع حدة القلق، اثناء البحث عن «مكان تحت الطاولة يخلو من الارجل» في اقصاها، اعني الى الدرجة التي تسد فيها مئات الارجل امكانية الوصول الى السلام والراحة. ويبقى الخيار ايضا مفتوحا.

اما «دوائر التعب»: فأية صور مشوشة ومشوهة للحياة العادية!! لكأن من يمارس حياته العادية يبدو من خلال القصة شخصا شاذا غريب الاطوار. حتى نكتشف حقا حكما بالجنون على الجانبين: الانعزال بكل تفاصيله المزعجة كما توحي دون ان تقول ذلك، والخروج الى الحياة العادية اليومية (الزوجة والوظيفة والاصدقاء).

أسوق لك ما ارى في بعض القصص عن البحث عن الراحة والسلام على فراش من قلق. والمثير لدهشتي حقا هو هذه الحيادية البالغة الدقة في رسم المواقف عبر القصص مجتمعة بالرغم من ان معظمها تأتي في صيغة المتكلم. ان هذه الحيادية دليل هام على ناحيتين: الاولى نضج

التجربة واستيعابها في محتوياتها الوجدانية والعاطفية. والثانية نضج التكنيك والتناول الفني للتجربة ذاتها. إن القصص تدل على أنك تعرف ما تريد ان تقول وتقوله بصورة واضحة. فإن لم تكن قد وجدت الراحة والسلام في فراش قلقك فقد وجدت الراحة والسلام في التعبير عن هذه الحالة. وهذا هو الشيء الوحيد الذي قد ارضى به ليطمئني على ان الفن سيكون خلاصك الاول والاخير. وخلاصك مم؟؟ ربما من القلق... وربما كنت تعرف ان هذا مستحيل. لانه بدون هذه المادة النادرة تقع في شبكات متعددة مثل كل الشبكات الخبيثة التي تقع بها شخصيات القصص نفسها جميعها دون استثناء. ستتحول الى الالية في الحياة... وعندئذ نفقد الوهج الذي لا ينطفىء في الروح. مع الحرص البالغ بالطبع على التفريق دوما بين القلق المبدع الخلاق والقلق المدمر الذي تقف قصصك على الحافة فيه وربما بدفعة واحدة بسيطة تضيع في اليم وتسحب معك القارىء ليرى على الاقل، ان لم يكن مهيئا اصلا، صورة ارتطام جسدك في المحيط. ان اهم ما أراه في العمل هو ان نضع نصب اعيننا هدفا يرمي الى استفزاز المتلقي واستثارة قلقه بحيث يؤلف هذا مدخلا للاطلال على الحياة برؤية اخرى مستشرفة، وليست متسائلة، في لحظة من لحظات الاشتعال في الروح والاستثارة.... الإستثارة بواسطة الفن. وإنني لأعتقد حتى الان ان قدمك لم تزلّ، فحاذر. لان مثل هذا الامر لا عثرات فيه، فاطلاك يأتي فورا اثر العثرة الاولى.... على قاعدة إن من يسقط مرة واحدة يسقط الى الابد، حتى في الفن، دون التدقيق في الوقت الحاضر بما هو صحيح من أن الفن طبقي، ولكن ما أريده هو أن تتمسك بوهج الروح. وعندئذ

سيتحول الى وهج في الروح الجماعية، اعني سيتحول واضحا فيما بعد، مع أنه الان موجود ولكنه مخبأ خلف ابعد السطور.

وأنا متأكد ان عددا من القراء حين يطلعون على قصصك مجتمعة او منفردة سيقولون كثيرا عن مضامينها السياسية، سيأخذون عليك انها قصص عدمية عبثية تخلو من اي مضمون اجتماعي نضالي. . . الخ. أنا متأكد انهم لا يرون عندئذ موقعك وانت تقف على الحافة بين القلق المدمر والقلق المبدع، واعتقد انه ما زال لديك فرص كبيرة لتحسين مواقعك شرط ان تبقى هناك متماسكا كقطعة من صخر الحافة وجزءً منها، وبهذا أنفي العدمية والعبثية. اما عن المضامين السياسية والاجتماعية فعلي ان لا انكر حقا ان هذه المسألة واردة ولكنها ليست مقصودة بذاتها ولذاتها . . . بل أن مادة تجربتك الذاتية في هذا المجال قد تحولت، اثناء انصهارها في معمل الروح، الى مادة أخرى عنوانها كما اسلفت البحث عن الراحة والسلام واستفزاز المتلقي. وهذا يقودني مباشرة الى اهم ما في القصص مجتمعة، بمعنى الخيط الواحد الذي يلظمها مجدولا مع عملية البحث عن الراحة والسلام. واعني به ان الوصول الى الراحة والسلام لا يمكن ان يتم الا على اساس الحرية. حرية النملة في ان تعبر عن ضجرها وتمردها، وحرية الشاب ابن الثلاثين في ان يمارس الحياة الشابة في جو ملىء باليأس والكهولة، وحرية الرجل الذي لم يعرف النوم في ايجاد جلدة لوقف القلق، وحرية الانسان في ان لا يهرب بسبب او بدون سبب، وحريته أيضاً في ان لا يغسل الجوارب والملابس الداخلية السوداء، وان يجد راحته في ابسط حقوقه. وان يرتاح على كرسيه ويجد مكانا لرجليه تحت الطاولة، وفي ان

يتخلص من دوائر التعب التي تلفه في كل مكان. وفي ان لا تكون ثمرة رجله (٤٢) وهي لم تزل اصغر، و. . . الخ.

وقد يبدو للوهلة الاولى ان مطلب الحرية هذا، المغلف خلف كل قصة، هو مطلب فردي ذاتي ولكني أرى غير ذلك. . . لأنه يأتي على قاعدة قلق عام اهم ما يميزه انه قلق بدون مسببات واضحة ولا يمكن قهره والتغلب عليه وانهاؤه. . . وهو طاغ الى درجة يصبح معها حقيقيا ومؤثرا. وهو بهذا ليس قلقا فرديا ذاتيا ناتجا عن سخط على حالة فردية ذاتية. انه قلق وجودي لا بد ان يتوضأ به الانسان حين يندفع بفعل الحياة للبحث عن السلام في الروح.

أنا متأكد ان هذه الملاحظات ستكون ذات فائدة ليس من حيث انها محاولة نقدية والا ما كنت تعاملت معها بهذه الحرارة. ولكني حاولت ان اجد ما يجمع بين هذه القصص في نسق واحد واشير اليه لعلة اسباب يقف في مقدمتها دعوتك الى مزيد من التوهج في الروح ومزيد من الاحتراق فيها مثل القرميد الاحمر المشوي لا يتصلب اكثر الا بالفرن، ثم بعد ذلك من الصعب ان يتفتت.

توقف المطر الان في الخارج، واكاد اسمع قطراته وهي تتخلى عن تشبثها باوراق الشجر وتسقط على الارض في ضجة اخرى خفية، احسها بداخلي مثلما يتحسس المرء آثار قبلة طرية في الخد الفاصل بين تشبثها على

الشفتين والعناقه عنهي . ومن المؤكد ان الانسان قد اعترف منذ زمن بعيد انه لا يمكن ان توجد «جملة» لكل هذه القطرات وكل هذا الشجر، فيتحول القلق مداهمة دائمة بالسلام والراحة .

مــع تحياتــي

سالم النحاس
ايلول ١٩٨٤

كانت مجموعة من النمل تعمل بدأب في نقل حبوب القمح المتناثرة هنا وهناك، الى مقر « بيت » النمل الذي تم اختياره في جذع شجرة قديمة. كان افراد البيت مهتمين بتخزين ما يكفي من المؤن للشتاء القادم. وهي مهمة مقدسة اخذها الخلف عن السلف. فاذا كان مسموحا لجماهير النمل ان تبدي رأيها في كثير من امور الحياة. فان مسألة العمل لا يمكن الجدل حول اهميتها.

الا ان نملة صغيرة ابدت في يوم من الايام تذمرها من هذه المهمة الفارغة، وقالت لرفيقتها:

ـ « هراء ان تكون حياة النمل مقتصرة على نقل اشياء سخيفة ».

فسألتها النملة الرفيقة بكثير من الدهشة:

- « ماذا تقولين؟ كيف نعيش من غير طعام؟ ».

فاجابتها النملة الاولى بلا مبالاة:

- « اننا سنموت على كل حال. يكفي ان يعبث بخليتنا طفل بشري، او تدوسنا في الطريق اقدام ضخمة، او يحرقنا رجل محبط لمجرد انه ضجر ويريد ان يتسلى ».

فقالت الرفيقة:

- « ان البشر يموتون ايضا. لقد علمت ان جميع الكائنات تموت مثلنا تماما. ومع ذلك فهي لا تتوقف عن القيام بشيء ما. انه الواجب المقدس ».

اجابت النملة الضجرة:

- « الحقيقة هي انني مللت هذا الامر الذي تسمينه مقدسا. لقد فقدت عنصر الدهشة في حياة رتيبة لا جديد فيها. ان حبوب القمح متشابهة حتى ليخيل الي انني نقلت حبة قمح واحدة طوال حياتي ».

قالت النملة الرفيقة:

- « ان المصلحة العامة تقتضي ان اقوم بكتابة تقرير مفصل عن نواياك السيئة هذه ».

وهرعت الرفيقة لمقابلة النملة قائدة الفصيل.

جلست النملة الضجرة في ظل اعشاب جافة، واخذت تفكر: « انهم مجانين. يعملون ليل نهار وكأنهم خالدون الى الابد. انهم يزدادون سمنة فحسب، ومع ذلك فالموت يبتلع

الجميع اخيرا ».

انتشر خبر النملة الضجرة في اوساط النمل. وصار الجميع ينظر اليها بعين الشماتة والازدراء. حتى ان احدى النملات المدللات قالت وهي تمر من امامها:

- « تلك هي النملة الساقطة، كم ارجو لو يسمحوا لي بدق عنقها ».

وقالت نملة مدللة اخرى:

- « ينبغي ان لا تظل هذه النملة الفوضوية بيننا بعد الان ».

اشاحت النملة المتمردة بوجهها وهي تقول:

- « هؤلاء المتحمسون الاوغاد ».

◆◆◆

ما من احد في المدينة. هواء وظلام وحارس عجوز اشعل نارا عند بوابة احدى البنايات وجلس قريبا منها. عجوز آخر مرّ من امامي دون ان يلقي التحية.

ازداد الهواء اندفاعاً وتساقط رذاذ خفيف. نظرتُ الى اعلى اثر جلبة اثيرت في الطابق الثاني، فرأيت امرأة عجوزاً تقف خلف النافذة وتراقب ما يجري في الشارع.

ابتلّ شعري. وتسلل الماء عبر ياقة معطفي الى ظهري. سيارة شرطة مرت سريعا، فتطاير رشاش الماء الموحل من تحت عجلاتها وصفعني. ازلت الماء والطين عن وجهي بخرقة صغيرة تحرص زوجتي على ابقائها في جيبي. توقفت سيارة الشرطة على بعد عشرين مترا مني، ورجعت الى الوراء، الى ان صارت موازية

لي. سعل شرطي عجوز فيها وامرني بالاقتراب من النافذة للتأكد من هويتي. سألني عن اسمي وعن عمري. وحين اجبته بأن عمري ثلاثون سنة، تبادل مع زملائه الهرمين نظرات دهشة واستغراب، وامرني بالصعود الى السيارة. صعدت. جلست في المقعد الخلفي الى جانب شرطي هرم ظل يسعل طوال الطريق الى المخفر. اما السائق، وهو في حوالي الثمانين من عمره، فانه لم يقل شيئا الا حين انهمر المطر غزيرا: «يا لشباب السماء، فانه ما زال بمقدورها ان تمطر». قال شيئا يشبه ذلك.

ترجلنا جميعا من السيارة، وقادوني عبر بوابة ضخمة الى رواق ينام فيه عدد من الرجال الهرمين. استيقظ احدهم اثر ضجتنا، وقام متثاقلا، يتوكأ على عكاز، ليفتح بابا من الحديد الثقيل، ادركت انه باب زنزانة. ادخلوني واغلقوا الباب بعنف.

لم ار شيئا. غير اني سمعت شخيرًا وسعالا حادين ينبعثان من مكان ما في العتمة. تقدمت خطوة فتعثرتُ باخشاب عرفتُ فيما بعد انها عكاكيز. انطلق من قلب الظلام صوت اجش امرني بالحفاظ على الهدوء. ثم سعل صاحب الصوت طويلا قبل ان يعود الى النوم. وخشية ان اثير ضجة اخرى. بقيت في مكاني منتظرا طلوع الفجر.

انزاح الظلام، وصار بمقدوري ان اميز اجساد السجناء الملقاة باهمال على ارض الغرفة. كانوا نياما، واذ تأكد لي انهم

شيوخ كبار، قلت في نفسي ان المرء في مثل هذا السن احوج ما يكون للراحة. وشعرت بفيض من السعادة لكوني ما زلت في الثلاثين من عمري.

لم انتظر طويلا. سرعان ما جاء شرطي هرم واخذني لمقابلة الضابط الهرم. سألني الضابط:

- « هل تزعم حقا انك في الثلاثين؟ ».

- « نعـــم ».

نظر الضابط الهرم الى جميع من كانوا في الغرفة. واشار بيده تلك الاشارة التي نقصد بها اتهام احدهم بالجنون. وامر باخلاء سبيلي.

خرجت من المخفر مسرعا. عند البوابة الكبيرة قال لي الحارس الهرم:

- « لا تنسى ان تزورنا ثانية ايها الشاب ». وانفجر يضحك ساخرا.

تدثرت بمعطفي ومشيت على الرصيف باتجاه موقف السيارات. ولكن الازدحام اعاق اندفاعي الى الامام. مئات من الاشخاص الهرمين كانوا يترجلون من السيارات ويتحركون ببطء في كل الاتجاهات: منهم من يتوكأ على عكاز، ومنهم من تقوس ظهره، ومنهم من يزحف زحفا. كان الواجب يحدوني ان اساعد بعضهم على الانتقال من رصيف لاخر. كنت سأفعل ذلك، لولا

ان قلقي على زوجتي وطفلي الصغير، اشعرني بضرورة الاسراع في العودة الى البيت قبل ان يستيقظا من النوم، خصوصا انهما لا يعلمان شيئا مما جرى لي.

صعدت الى سيارة اجرة. وامرت السائق الهرم ان يوصلني بسرعة الى حيث اقيم. توقفت السيارة عند اشارة مرور ضوئية، وتوقف بجانبها باص صغير مخصص لنقل الاطفال من بيوتهم الى مدرستهم. ما ادهشني هو ان ركاب الباص كانوا من الشيوخ الذين تزيد اعمارهم عن الثمانين. واذ اعربت للسائق الهرم عن دهشتي، طوى شفتيه كما لو اراد ان يقول لي: « لا تستغفلني ». وقاد سيارته بعصبية فائقة.

نقدت الرجل الهرم الاجرة، وصعدت الدرج الموصل الى شقتي. فتحت الباب وصرخت مناديا زوجتي. فلم ترد. واذ اندفعت الى غرفة النوم، فوجئت بامرأة هرمة تشبه زوجتي، ورجل هرم يشبه طفلي، ينامان على سريري. تراجعت مذهولا الى الوراء. ورأيت صورتي في المرآة، فوقعت ارضا.

◆ ◆ ◆

ما ان وضعت رأسي على الوسادة، وكلّ ثقة انني ساغفو في الحال، حتى سمعت صوت قطرات ماء تتساقط من حنفية في المطبخ او الحمّام. نهضت وشددت الحنفيات باقصى ما استطيع. خيل الي انني عالجت الامر. فعدت الى فراشي.

كنت متعبا، وفي امس الحاجة لقسط من الراحة. وحين اوشكت على الامساك بطرف الخيط، ذلك الخيط الذي يسحب المرء رويدا رويدا الى عالم الغياب، سمعت ثانية صوت تساقط القطرات. صوت رتيب، كأنه يرتطم بسقف جمجمتي. حاولت اشغال ذهني بامر اخر، التفكير بالغد مثلا، في محاولة لعدم الرضوخ لصوت الماء. ولكن عبثا. لقد تملكني صوت القطرات المتساقطة حتى خلت ان الضجيج الناجم عنها يكاد يصمّ اذنيّ.

اي حنفية تلك التي يرشح منها الماء؟ وبكثير من الغيظ، نهضت للبحث عن الحنفية المشاغبة.

شددت الحنفيات مرة ثانية وعدت الى فراشي. اظن ان الساعة كانت قد تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل. اغمضت عينيّ، واذا بقطرات الماء تعاود السقوط. كدت اجن. ان شعوري بالعجز ازاء شيء تافه ـ مجرد قطرات ماء ـ جعلني اتميز غيظا. لو كان الوقت نهارا لخرجت من فوري لشراء جلدة للحنفية، تلك الجلدة الصغيرة التي توضع في مكان ما داخل عنق الحنفية، ويرشح الماء من الحنفية اذا تلفت. او حتى لشراء حنفيات جديدة. ولكن اي قوّاد يبيع جلد الحنفيات في هذا الوقت؟.

للمرة الاولى في حياتي، اجد ان الاشياء الصغيرة، التافهة، التي لا يمكن تذكرها، تغدو ضرورية احيانا. وفي غمرة احساسي بالحنق الشديد، قررت شراء دستة كاملة من جلد الحنفيّات، كي لا اكون مضطرا لقضاء ليلة مشابهة في المستقبل. وبقيت جالسا في فراشي منتظرا طلوع الفجر.

في الصباح الباكر، خرجت لتحقيق رغبتي بشراء الجلد. كنت اعرف ان هذه الاشياء تباع في محلات مراد البناء. ولكني فوجئت بجمهور غفير من الناس يقفون في طابور طويل امام محل مواد البناء القريب من منزلي. خطر لي ان غايتهم شراء

الاسمنت. كثيرا ما سمعت عن ازمة الاسمنت. ولانه لا يليق بي الوقوف في طابور طويل لمجرد الحصول على شيء اقل اهمية من الاسمنت، قررت الذهاب الى محل اخر.

كان الناس يتجمهرون هناك ايضا. اناس من مختلف الاعمار. رجال ونساء واطفال. بعضهم يجلس مستندا الى الجدار وقد ارخى رأسه الى اسفل. وكان الاطفال والنساء والشيوخ يبالغون في التثاؤب، وقد ران عليهم جو كئيب. اما الشباب فقد وقف الواحد منهم محاولا اظهار اقصى فحولته للايحاء بانه قادر على حماية موقعه في الطابور.

اقتربت من الجمهور مدفوعا بفضول لمعرفة ما يجري. استمعت لحوار جرى بين اثنين كانا في المؤخرة. قال احدهما:

ـ « تخيل، لقد مات احد اطفالي من جرّاء السهر. منذ فترة لم يتمكن احدنا من النوم. انها تلك القطرات كما تعرف. واخيرا نصحني الاصدقاء بتغيير جلد الحنفيات. لا ادري ان كان هذا حلا ناجحا ».

قال الرجل الثاني:

ـ « لقد ارسلت زوجتي للوقوف في طابور امام محل اخر، ربما تمكن احدنا من الحصول على جلدة واحدة على الاقل ».

قال الاول:

ـ « بالكاد استطيع الوقوف على قدمي، لو انك تحرس مكاني لنمت قليلا ».

نشب شجار بين رجلين في المقدمة. احدهما شجّ رأس الاخر بحجر. تعالى زعيق النساء. وطار فوق الرؤوس حذاء كان في طريقه للارتطام برأس رجل في المؤخرة. ومن اليمين الى اليسار تقاذف الناس الحجارة والاحذية والحنفيات. داس المتعاركون على الاطفال، وصاح صاحب المحل:

- « ان لم تحافظوا على الهدوء والنظام، فلن ابيع احداً ».

ادهشني الامر. واعتقدت ان ما اراه امامي مجرد كابوس. وربما ينتهي هذا الكابوس، رحت اتجول في الشوارع. صادفني اناس متعبون، واناس نائمون على الارصفة، واناس يتفجر الدم من عروق اعينهم لفرط ما سهروا، واناس ذابلون يرفعون ايديهم الى السماء طلبا للمغفرة. ورايت لوحات صغيرة مثبتة على ابواب الدكاكين، مكتوب عليها: « لا يوجد لدينا جلد للحنفيات، نرجو عدم الاحراج ».

◆◆◆

لم انتبه لخلو الشوارع من السيارات، وخلو الارصفة من المارة، الا حين صرت في منتصف الطريق الى وسط البلد، نظرت في كل الاتجاهات حولي، فلم ار احدا على الاطلاق، قلت: « ربما ان اليوم هو يوم عيد » ولكني تذكرت انه ليس محظورا على احد المشي في اي من الاعياد المعروفة. قلت: « ربما ان التجول في الشوارع ممنوع لسبب من الاسباب، من يدري؟» ولكني تذكرت انه لم يتمّ الاعلان عن ذلك في الاذاعة. ثم حاولت ان اتذكر ان كانوا في الاذاعة قد قالوا شيئا بهذا الخصوص. فتذكرت انه لم يكن في حوزتي راديو منذ سنوات خلت. قلت: « هو حظر تجول اذن، وما شأني انا؟؟ »

واذ حاولت مواصلة المسير، رأيت رجلا يهرول باتجاهي

ويصرخ: « اهرب ..... اهرُب ». مر الرجل من امامي دون ان يتوقف. فراقبته الى ان غاب في شارع فرعي، وكان ما يزال يلوح بيديه كما لو ان حريقا قد شبّ في ملابسه. قلت: « هو مجنون، ويجب عليّ ان اواصل المسير ».

مشيت. من الخلف اصطدمتْ بي امرأة، فاستدرت كي اتبين الامر، واذا بها تصرخ في وجهي: « اهرب ايها الرجل .... اهرب سريعا » وقبل ان اتبين الامر، كانت المرأة قد اختفت في زقاق. قلت: « هي مجنونة ويجب عليّ ان اواصل المسير ».

مشيت. واذا بطفل يقطع الشارع بسرعة اذهلتني. وقبل ان يغيب في زقاق، صرخ: « اهرب ايها الرجل ».

من غير ان انتظر لحظة اخرى، ارخيت قدميّ للريح، وجعلت اصرخ من اعماقي « اهربوا ايها الناس، اهربوا جميعا ».

◆◆◆

فجأة، صرخ رجل في الشارع بأعلى صوته: « احمـــ اااد ».
هرول باتجاه رجل كاد يغيبه الزحام.
« احمـــ اااااد ».
اصطدم بالمارة. فاعتذر ممن اصطدم بهم.
كان يصرخ ويشير بيديه: « احمـــ . . . . . احمـــ . . . اااد ».
اقترب من الرجل المقصود. « احمـــ . . . انـا آسف، لم اقصد الازعاج، ولكني ظننتك احمد، اكرر اسفي الشديد ».
صرخ من جديد: « احمـــ أأأد ».
هرول باتجاه رجل على الرصيف الاخـر . . . . . « احمـــ اااد ».
سيارة مسرعة كادت تدوسه . . . . . .

كان يصرخ ويشير بيديه: « احمـــ . . . . . . احمـــ . . . . .
أأد ».
اقترب من الرجل المقصود « احمـــ . . انا آسف، لم اقصد
الازعاج، ولكني ظننتك احمد، كرر اسفي الشديد ».
صرخ من جديد: « احمـــ أأأد »
هرول باتجاه الرصيف الثاني.
كان يصرخ ويشير بيديه:
« احمـــ أأأأأأد »
اصطدم بشجرة وهو يصرخ ويشير بيديه . . . . . احمـــ أأأد
. . . . .
اقترب من الرجل المقصود: « انا آسف، لم اقصد الازعاج »
هرول باتجاه رجل اخر: « احمـــ أأأأد . . . . . . احمـــ أأأد »
اقترب من الرجل المقصود: « انا آسف، ولكني ظننتك احمد »
هرول باتجاه رجل اخر
« احمـــ أأأد »
« انا آسف، لم اقصد الازعاج »
هرول بغير اتجاه محدد.
سيارات مسرعة كادت تدوسه.
كان يصرخ ويشير بيديه:
« احمـــ . . . . . احمـــ . . . . . أأأد »
« احمـــ . . . . . احمـــ . . . . . أأأد ».

◆◆◆

الجـــواب

لو كان في يدي حجر صلب، لكنت هويت به على رأس صديقي الذي كان مشغولا بمراقبة ملابسه الداخلية وهي تعوم في ماء يغلي. كنت راغبا بشجار حاسم. فمن أن أتخلص منه أو العكس، والنتيجة في الحالتين سواء. لكي تمالكت نفسي، وانتظرت الى ان فرغ من غسل ملابسه الداخلية. فقلت له:

- « أنت قذر، إنني في حياتي لم أر شخصا تميل ملابسه الداخلية الى الاصفرار » فاجاب صديقي بعصاب هادئة:

- « ولكنك بالتأكيد تعرف شخصا تميل ملابسه الداخلية الى الاسوداد » وابتسم لكاية بي. فقمت من فوري ودلقت الماء الساخن على أرض الغرفة متوقعا أن تثور أعصاب صديقي، فينشب الشجار الذي احلم به.

لكن صديقي لم يثر، بل قال بهدوئه المألوف:

- « إنك ستغسل أرض الغرفة على أي حال ».

كدت أموت من الغيظ. جلست على طرف السرير وأجهشت في البكاء. ومع ذلك فقد ظل صديقي مواظبا على تأمل ملابسه الداخلية دون أن يواسيني بكلمة.

كففت عن البكاء. وران صمت علينا. للحظة عاودتني الرغبة في اقتراف جريمة نكراء، وفكرت كما يلي: أهجم عليه من الخلف، وأشج رأسه بحجر صوان، ثم أعمل السكين في جسده، واذا ما أنتهيت من تقطيعه دعوت قطط الحارة لتأكله، وبذلك أنتهي من أمر الجثة. حتى لو عجزت عن ايجاد قطط كافية، فان أحدا لن تراوده الشكوك بخصوص إختفاء صديقي. أكاد أجزم أن المرء يمشي طوال أيام دون أن يقابل شخصا يعرفه، أنا الوحيد الذي يمكن أن يشعر بعدم وجوده في الدنيا، وسيكون ذلك شعورا لذيذا دون شك.

كنت ما ازال أفكر بجريمتي حين قال صديقي:

- « اراهن أنك تفكر بطريقة للتخلص مني. لا تحاول، فانك ستعجز كما عجزت أنا. لا أخفي عليك، لقد فكرت مرارا. فالاقامة معك في نفس الغرفة ليست بالامر الذي يدعو الى البهجة كما تعرف، ولكني قررت في النهاية الرضوخ للامر الواقع. وها أنذا أغسل جواربي وملابسي الداخلية، واجد في

ممارسة ذلك متعة وانسجاما عظيمين. حاول أن تجرب ذلك، فلديك من الاشياء التافهة المتسخة ما هو في حاجة الى تنظيف ».

ـ « أنت تعترف اذن؟ أي قدر هذا؟ أنام في سرير واحد مع شخص فكر مرارا بقتلي. قل لي، هل فكرت بدعوة القطط أيضا؟ ».

ـ « تماما، لكني عدلت عن ذلك حين تأكد لي أن القطط ستأنف من لحمك النتن. لذا قررت رميك على قارعة الطريق. أنت تعرف أنه ما من أحد سيكتشف بانك لم تعد تتواجد في الشوارع كالسابق. أرأيت؟ ان لهذا الجورب قيمة اكثر مما لك ». ورمى باتجاهي جوربا مبللا زكمت رائحته أنفي. فقلت له:

ـ « ولكني سئمت العيش معك في غرفة واحدة. كلما ذهبت الى المرحاض وجدتك امامي. كأنك تظل ساهرا طوال الليل لمجرد أن تكون البادىء في استعمال المرحاض في الصباح. فتكاد امعائي تنفجر، وأنت لا تقيم وزنا لامعائي. وكلما أردت النظر عبر النافذة لرؤية الغرباء في الشارع، أجدك امامي أيضا. لم أعد أحتمل. انني اطالب بقليل من حرية التصرف. اليست الغرفة لي مثلما هي لك؟ ».

ـ « أرى أنك تنفعل لاتفه الاسباب. ما الذي يمنعك من الدخول الى المرحاض، أو النظر عبر النافذة، في هذه اللحظة بالذات، طالما أنني مشغول بغسل جواربي؟ ».

ـ « ليست بي رغبة الآن. ولكني لم أر حاجة في ذهابك المرحاض في هذه اللحظة. لقد جئت بك تريد الذهاب قبلي، إنك لا تفعل في حياتك شيئاً سوى التبول وغسل الجوارب ».

ـ « يا عزيزي، إنني أستعمل المرحاض كلما دعتني الحاجة الى ذلك وليس لقضاء الوقت الفراغ، أو لممارسة رياضة الوقوف على الرأس. ثم إنني أؤكد لك بأن حجم معاناتي إزاء هذا الامر لا يقل عن حجم معاناتك. اذ غالبا ما أجدك قد سبقتني الى هناك. ولو أنني اردت أن أبول الآن، لاصطدمت برغبتك في التبول ايضا. الامر الذي جعلني أتسلى بغسل الجوارب طوال الليل، حتى اذا اوشكت الشمس على الشروق، كنت البادىء في الدخول الى المرحاض. لا انصحك باللجوء الى هذه الطريقة، ستتعب. إنني لم أنم منذ وقت طويل. الا ترى انني قد هزلت في الأونة الاخيرة؟ ».

ـ « ها أنت تعترف مرة أخرى؟ قل، وماذا بعد؟ »

ـ « أما بخصوص النظر عبر النافذة، فانني لا أفعل ذلك لمجرد مراقبة الهراء الذي يمارسه الغرباء على الارصفة. بل لتجفيف جواربي وملابسي الداخلية. أنت تعرف كم هو مهم هذا الامر بالنسبة لي ».

ران صمت علينا. وعاد صديقي الى العبث بالماء الساخن في الوعاء، فعاودتني الرغبة في قتله. يكفي أن أرفع يدي، على

أن يكون الحجر من الصوان الصلب. وأهوي به على رأس صديقي، فتتطاير الدماء وتثار الجمجمة. سأجعل ما يتبقى من جمجمة صديقي منفضة لسجائري، انا لا ادخن حالياً، ولكني سأدخن في المستقبل لهذه الغاية. قسما إن ارتكاب الجرائم البشعة اكثر نفعا من غسل الجوارب والملابس الداخلية.

خطر لي حل مناسب، فقلت لصديقي:

- « هناك اصناف من الطعام تعجز المعدة عن هضمها بسهولة، وهناك أصناف سرعان ما تتحول الى براز. فان أكلت أنت من احد الصنفين، أكلت انا من الصنف الاخر، وزيادة في الحيطة والحذر سنأكل في وقتين مختلفين. وبذلك لن نضطر الى استعمال المرحاض في وقت واحد. فما قولك؟ ».

ضحك صديقي ساخرا وقال:

- « لقد فكرت في ذلك ايضا، وأجريت تجربة فاشلة على اصناف مختلفة من الاطعمة. كنت أتجنب الاصناف التي تأكلها أنت، ومع ذلك كانت امعائي تمتلىء بالبراز فور أن اراك ذاهبا باتجاه المرحاض ».

- « ما العمل اذن؟ ».

بهدوء، اشار صديقي الى كومة من الجوارب الملونة وقال:

- « يوجد تحت تلك الجوارب مسدس جاهز. ما عليك الا ان تضع القهوة في فمك وتضغط على الزناد. ولكن قبل ذلك اعطني الجوارب لاحفظها في مكان لا يصله رشاش المياه

كان صديقي يسخر مني. اذ لم يكن ثمة مسدس. جوارب فقط. فاطلقتُ من جوفي صرخة مدوية هزّت جدران الغرفة، ووقعت أرضاً.

◆◆◆

كان الذوق يحدوني ان اظل مصغيا حديث الرجل الاشيب، الاّ انه لم يعد بامكاني ذلك. فقد تيبست مفاصلي من فرط الجلوس على كرسي من الخشب البحت. وصار لزاما عليّ ان اتحرك. فكرت ان اقول للجالسين معي حول الطاولة بأن حاجة تضطرني للذهاب الى المرحاض. وانتظرت حدوث ثغرة في سياق الحديث تمكنني من قول ذلك. الا ان الرجل الاشيب، الذي بدأ يتكلم منذ ساعة او اكثر، افسد خطتي بحديثه المتواصل. فلم اشأ ان اقاطعه خشية ان يظن الجميع انني لم اكن مصغيا منذ البداية.

تخدّر جسدي، وقررت ان احرك قدميّ تحت الطاولة التي نجلس حولها، فان ذلك على الاقل يتيح للدم ان يجري في

عروقي. وما ان حركتها حتى اصطدمت بأرجل احد الجالسين. نظر إليّ الرجل كأنما توقع ان اعتذر، وهز رأسه بتسامح مبالغ فيه. وانهمك ثانية في لاصغاء للرجل الاشيب.

كان الجالسون حول الطاولة، جريصين على تلقف كل كلمة يقولها الرجل الاشيب. ويهزون رؤوسهم فهما واعجابا. اما انا فقد تعذر عليّ الاصغاء نتيجة الرغبة التي تملكتني. وبت مأخوذا تماما بايجاد وسيلة تكفل لي وضعا مريحا طالما انني مرغم على الجلوس حتى النهاية.

حاولت ثانية ان امد قدميّ، فاصطدمت مرة اخرى بأرجل احد الجالسين. هزّ الرجل رأسه قبولا لاعتذاري دون ان يكفّ لحظة عن الاصغاء للرجل الاشيب.

سُئل الرجل الاشيب سؤالا، فابتسم كأنما أراد ان يوحي لنا بأنه تعرّض لسؤال ذكيّ. ومدّ قدميه تحت الطاولة فاصطدمتا بقدميّ. لم يعتذر، بل اجاب عن السؤال قائلا: (بعض الناس، نحن بالذات، قادرون على ايجاد الحلول لعذابات الناس جميعا).

لم اواصل الاستماع لما قاله الرجل الاشيب، فقد كنتُ مشغولاً بإيجاد حل لعذابي الخاص. حركت قدميّ باتجاه توقعتُ ان يكون خلواً من الارجل، فاصطدمتا بارجل لم اعرف صاحبها، غيرّت اتجاه حركتي، فاصطدمت قدماي ايضا بأرجل

اخرى، فخمّنتُ ان الانسجام قد سبب خذلــين احساسهم حتى انهم لم يعودوا موقنين بتقبل اعتذاري.

اوغل الرجلُ الاشيــب بالحديث، ورحت ان اتوقع مكانا تحت الطاولة يخلو من الارجل، واثقا من وجود هذا المكان، طالما ان عــدد الجالســين حول الطاولة هــو اربعة فقط، أنـا وهُمْ. وباعتقادي ان المساحة تحت الطاولة تتسع لارجلنا جميعا.

خُيّل اليّ انني عثرت على مكان. ولكن اتضح لي اذ مددتُ قدميّ انه مشغول ايضا. فتملكتني رغبة حمقاء بالنظر الى اسفل. لمجرد التأكد من عدد الارجل الموجودة تحت الطاولة، حتى وأن كان هذا السلوك حريّاً بإثارة حنق الرجل الاشيب.

كــان معي قلم، فتعمدت اسقـطـه ارضـ. وابتـسمتُ متظاهرا بالخجل كما لو كنت آسف حقـ، وانحنيت لالتقـطـه. فرايت تحت الطاولة مئات الارجل.

◆◆◆

« السماء صافية، ولا يبدو انها ستمطر . الا ان معطف ضروري في مثل هذه الايام. ولا اظن ان احد يستطيع القول بثقة مطلقة انه ليس في وسع السماء ان تمطر في شهر شباط

انهمك الموظف في البحث عن معطفه . وكاد يصرخ بأعلى صوته حين لم يجد المعطف في المكان المحدد . « اني ابحث عن هذا المعطف منذ سنوات طويلة دون ان اوفق يوما الى ايجاده. ولولا خوفي من ان تعود زوجتي الى القول بانه لم يكن لديّ معطف في يوم من الايام، لكنت ايقظتها لمشاركتي في البحث، فهي ربة البيت على اي حال . . . . . ولكن لا يهم، فملايين الاشخاص في العالم لا يملكون معاطف، ومع ذلك فهم اشخاص محترمون كما انني لست مضطرا الى التأخر عن عملي بسبب معطف تافه .

اما بخصوص الزوجة، فمن الخير لها ان تظل نائمة، طالما ان المسؤول عن مصاريف البيت والأولاد هو انا ».

وقبل ان يخرج من الغرفة، نظر الموظف الى وجهه في المرآة. « بكل هذه الاناقة، ساغدو رجلا نشيطا وجديرا باحترام الاخرين، ولا اظن ان ثمة فتاة ستكون مضطرة لرفضي حين اتقدم للزواج منها، رغم انني متزوج ولا افكر بالزواج من جديد، فالاشخاص المحترمون يتطلعون الى المجد لا الى النساء الجميلات ».

في طريقه الى الشارع الرئيسي، قال الموظف للشخص الذي يرافقه:

- « كان حريّا بي ان ارتدي قميصي الازرق، لولا ان زوجتي حالت دون ذلك. ماذا تقول عن زوجة تستيقظ في الصباح الباكر لمجرد الاشراف على اناقة زوجها؟ لقد قلت لاصدقائي الكثيرين، والذين يصعب حصرهم، بان خير ما قمت به في حياتي هو اختياري لها زوجة. ولكنها لا تحب اللون الازرق، وهي ليست ملومة في كراهيتها لهذا اللون بالذات. فمن حق الاشخاص جميعا ان يكرهوا ما شاءوا من الالوان. ولكن بعض الاشخاص الذين ينقصهم التهذيب، يعتقدون ان عدم ارتدائي لقميص ازرق ناجم عن ضائقة مالية تمنعني من شراء قمصان متعددة الالوان. انه افتراء يا عزيزي، اؤكد لك

انهم يشعرون ازائي بغيرة شديدة، وهذا ما يدفعهم للتيل من شخصيتي الموقرة. هل ثمة ما يدعو للضحك فيما اقول؟؟ ما الذي يضحكك اذن؟ لا اظن انك تسخر، فذلك سيضطرني اسفا الى قطع علاقتي بك. هل تعتقد انني اشكو من نقص في المعارف والاصدقاء لكي اسكت على هذه الاهانة؟ انك واهم تماما، فاصدقائي يصعب حصرهم، وان اردت التأكد من هذا الامر فما عليك إلاّ ان تقوم بزيارتي. انني ادعوك لقضاء وقت طيب في غرفتي. لدىّ من الطعام والشراب ما يجعلك متخما لثلاثة ايام متتالية . . . انني احرص على تكديس الطعام ».

انضّم الموظف الى جمهرة من الناس كانت تقف تحت مظلة الباص. وقال للمرأة الحسناء التي ترافقه:

ـ « ان مؤسسة المواصلات تتحمل مسؤولية هذا الهراء. لا ادري كيف يمكنهم الإسراف في اضاعة الوقت الثمين للاشخاص المهمين مثلي. انه محض هراء يا عزيزتي. ولولا عنادك لكنت اشتريت سيارة خاصة منذ سنوات طويلة. ولكنك عنيدة جدا. تقولين انه لا لزوم للسيارة طالما اننا لم نتزوج. اؤكد لك انني لم اعد احتمل. وعليك ان تبرهني على صدق مشاعرك نحوي بالموافقة على زواجنا في اقرب وقت. ليس معنى ذلك انني اشعر بوحدة رهيبة، وانني في امسّ الحاجة لمن اتحدث اليه. لا، فاصدقائي يصعب حصرهم، ولكني احبك، ومن الطبيعي ان يلتمس المحب بقاء المحبوب الى جانبه ».

جاء الباص. فاظهر الموظف شيئا من الامتعاض. ونظر الى ساعة معصمه قائلا للطفل الصغير الذي يرافقه:

- «ليس في وسعي ان اعرف الوقت الان. لقد اعرت ساعتي لصديق لي ليلة البارحة. انه شخص رائع، وليس من عادتي ان ابخل بشيء على اصدقائي الذين يصعب حصرهم. ولو ان احدهم طلب قميصي الازرق الذي ارتديه الان لما بخلت عليه به».

صعد الموظف الى الباص، وعلى الرغم من توفر مقاعد شاغرة، الا انه بقي واقفا قرب النافذة، وقال للطفل الذي يرافقه:

- «انا احب الازدحام في الواقع، فلكي ينهمك المرء في الحياة العامة، لا بد له من الاحتكاك بالاخرين. اذ كيف يمكن لشخص لم يخرج من غرفته طوال ثلاثة اشهر ان يكون اجتماعيا؟ اؤكد لك يا عزيزي انني مشغول اكثر مما تتصور، وربما امكنك ان تفهم ذلك حين تصبح مسؤولا عن اسرة كبيرة في المستقبل. اما هؤلاء الذين يجلسون في غرفهم من غير ان يشعروا بمرور الوقت، لانهم يفتقرون الى اماكن يمكن الذهاب اليها، او لانهم لا يمثلون شيئا للاخرين، فان اقل ما يقال عنهم انهم اشخاص وحيدون».

هزّ الموظف رأسه اسفا، وواصل حديثه قائلا:

- « ان هؤلاء الـذين يتـذمـرون من انهم وحيـدون ومنعزلون، قد يضطرون للقيام بما من شأنه ان يشكك في قواهم العقلية، مع انهم اسوياء تماما. فانا على علاقة حميمة بواحد من هذا النوع، وهو شخص رائع بلا شك، الا انه وحيد، ولكي يظهر كشخص منسجم في الحياة العامة، فانه يبحث يوميا عن معطف وهمي، ويخاطب زوجة وهمية ورفقاء وهميين، ويخرج الى وظيفة وهمية. انها قصة مؤلمة وغريبة بعض الشيء، ومع ذلك فانه ليس من حقنا اتهام صـديقي بالجنـون، فلكل منـا ظرفـه الخاص، ولولا حرصي على اسرار الاخرين لكنت حدثتك بما يقوم به صديقي من اعمال مخجلة. اما انا فانه لم يتح لي الجلوس في غرفتي طوال ثلاثة اشهـر كما يفعـل البؤساء العـاطلون عن العمـل، فلديّ دائما مـا ينبغي انجازه. انـا لست وحيدا عـلى الاطلاق، وغالبا ما اتحـدث الى اناس كثيـرين في امور شتى، ولست مضطرا للخروج من غرفتي لايهام الاخرين بانني موظف مشغـول جدا، فـانا مـوظف كما تـرى، وما اكـثر مـا يـزورني الاصدقاء، فاليلة بالذات سيزورني صديق لم اره منذ سنـوات طويلة، الصحيح انني مشتاق لرؤيته، وقد اضطر اليوم لاجازة نفسي من العمل للتهيؤ لاستقباله، فمن قلة الذوق ان استقبل صديقي العزيز مثلما يستقبل الناس في الصحراء عيد الشجرة ».

وصل الباص الى المحطة الاخيرة، فترجل الموظف ناظرا في وجوه المارة، قائلا للمرأة الحسناء التي ترافقه:

ـ « انظري الى هؤلاء. بعضهم قادم من مكان ما، وبعضهم ذاهب الى مكان ما. ثمة في الدنيا كثير من الاماكن التي يعتبر الذهاب اليها، او القدوم منها من الامور المجدية. وكم اعجب من امر اولئك الاشخاص المنعزلين الذين يمكثون طويلا في غرفهم القذرة ويذرفون الدموع ».

وتأبط الموظف ذراع المرأة التي ترافقه، وغاب في زحام الذاهبين الى وظائفهم.

◆◆◆

الاحخية

كان الجو باردا . . . . . .

حين غرفت امّي الماء من البرميل لتحضير الشاي اصطدم الاناء بطبقة من الجليد، فقالت لي :

- « انك لا تستطيع الذهاب الى المدرسة بما عليك من ملابس، إنتظر ريثما اعطيك المعطف واحذاء الجديدين ».

اخرجت من قاع صندوق الملابس معطفا نسائيا داكن اللون، وحذاء طويل العنق. قالت :

- « لقد اشتريت هذه الاشياء من بائع جوّال جاء بالأمس. انها جديدة كما ترى ».

وضعتني امّي في المعطف الضخم، واخذت تحكم اغلاق الازرار بحيث لا ينفذ الهواء الى صدري.

- « امّي، ان له رائحة كريهة!! ».

- « استدر لأرى. انه ممتاز. خذ الحذاء ».

سرعان ما هوت قدمي الصغيرة في جوف الحذاء الذي بلغ ركبتي.

- « انني لا استطيع المشي بهذا الحذاء الكبير ».

- « انه خير من الصندل على كل حال. هيا اربط الرباط ».

- « لكنه مثقوب ».

- « انه ممتاز. لقد اشتريته بثلاثين قرشا. هيا ارني كيف تبدو الآن ».

ضحكت امّي حين رأتني امشي في الغرفة وانا أكاد اقع. لكنها تداركت الامر قائلة:

- « لا بأس يا حبيبي، فالبرد لا يرحم، ولكن حافظ على المعطف نظيفا، فاذا امطرت السماء تمسّك بطرف المعطف كي لا يتلطخ بالطين ».

في الطريق الى المدرسة، امطرت السماء وصفع المطر وجهي. كنت اجد صعوبة في الحركة. فالمعطف يجر على الارض. والحذاء يتطلب جهدا اضافيا في كل خطوة. حاولت ان ارفع طرف المعطف عن الارض كما اوصتني امّي. فسقطت حقيبة الكتب في بركة ماء صغيرة. كان المطر يهطل غزيرا. والهواء القوي يندفع بالاتجاه المعاكس لي. كنت لا استطيع النظر امامي. لقد تسرب الماء عبر ياقة المعطف الى ظهري. شعرت

ببرودة شديدة، ولكني لم اكترث. فقد كنت افكر: « ماذا لو رآني التلاميذ على هيئتي هذه؟ سأكون اضحوكة بلا شك، انه لا يجوز ان نرتدي ملابس النساء ». خطر لي ان ارجع الى البيت. كان مجرد خاطر. خطر لي ان اتخلص من المعطف والحذاء نهائيا. كان مجرد خاطر ايضا. توصلت الى قرار نهائي: اضع المعطف والحذاء في مكان هنا واذهب الى المدرسة بدونهما. نظرت حولي: لم يكن ثمة احد. حفرت تحت صخرة معلومة واخفيت المعطف والحذاء. شعرت بارتياح كما لو تخلصت من حمل ثقيل. خضت في الماء حافيا. لا بأس، كثيرون هم الاولاد الذين يذهبون الى المدرسة حفاة. انه امر لا يجلب العار لأحد. ركضت بأقصى سرعتي شاعرا بحيويتي المعتادة.

كنا حوالي سبعين تلميذا في غرفة صغيرة. النوافذ بلا زجاج. الهواء يزمر في الغرفة. التلاميذ يتراصون طلبا للدفء. الاستاذ يقرأ في كتاب الانجليزي ذلك الدرس المتعلق بزيارة سمير وسلمى الى لندن.

تأخر استاذ الحصة الثانية عن القدوم. كانت اقدام الحفاة منا قد اوشكت على التجمد. جاء مدير المدرسة وقال لنا:

- « ستخرجون بانتظام لمقابلة اللجنة في الادارة ».

لجنة؟ ما الذي تريده اللجنة منا؟. شعرنا بالخوف الشديد. واخذنا نتساءل ان كان احدنا قد فعل شيئا يستوجب قدوم هذه اللجنة. وحفظا للنظام اخرجونا واحدا واحدا.

كنا ننتظر ان يعلو صراخ اول الذاهبين على اعتبار انه يتعرض للضرب المبرح. فوجئنا حين عاد التلميذ يحمل تحت ابطه حذاء جديدا. اخبرنا ذلك التلميذ ان اللجنة مؤلفة من ثلاثة رجال وجبل كبير من الاحذية الجديدة. لم نصدق بالطبع. عاد التلميذ الثاني وقد حصل هو الاخر على حذاء. عمّت الفوضى واخذ التلاميذ يتقافزون فرحا.

جاء دوري. هرولت بأقصى سرعة الى الادارة. وجدت نفسي امام جبل من الاحذية بالفعل. احد الرجال سألني:

- « كم نمرة رجلك؟ ».

- « هـــا ؟؟؟؟؟ ».

سألني بضيق:

- « كم نمرة رجلك؟ ».

لم اكن اعرف ان للرجل نمرة. لكني سمعت مرة ان احد اقربائنا قد اوصى اخاه المسافر الى السعودية بأن يجلب له حذاء نمرة « ٤٢ » من هناك. فقلت من فوري:

- « نمرة رجلي « ٤٢ ».

اعطاني الرجل حذاء. عدت الى الصف فخورا لكوني عرفت الاجابة الصحيحة. كان التلاميذ قد انتعلوا احذيتهم الجديدة، واخذوا يدقون الارض بها. جربت الحذاء، لكن قدمي الصغيرة غاصت فيه حتى اخرها. حاولت ثانية، فتبين لي انه اكبر بكثير من ذلك الحذاء النسائي. كدت انفجر من الغيظ.

فكرت ان اراجع اللجنة. لكني خشيت ان يصادروا الحذاء. كان التلاميذ مشغولين باحذيتهم فلم يتنبهوا لمصيبتي. دفنت رأسي بين يدي وبكيت.

في طريق العودة، لم اشأ ان انتعل الحذاء خوفا من سخرية التلاميذ. حاولت ان ابدو فرحا مثلهم. كانت السماء تمطر، فسألني احدهم:

- « ايها المجنون، كيف تمشي حافيا وقد صار لديك حذاء ».

اجبته:

- « ساحتفظ به للعيد القادم ».

اطرق قليلا، فكأنما راقت له الفكرة، ثم مضى.

اختلطت دموعي بالمطر. لم اعد اكترث بالهواء المندفع في وجهي، ولا بالماء الذي بلل ملابسي. ذهبت الى الصخرة التي اخفيت تحتها المعطف والحذاء النسائيين. ارتديت المعطف وانتعلت الحذاء. وخوفا من لوم امّي ان هي عرفت خيبتي، اخفيت الحذاء الجديد تحت الصخرة. قلت في نفسي:

« سأعود اليه عندما اكبر » اعجبتني الفكرة. فابتسمت وقد زال حزني.

◆◆◆

الفهرس

« المقدمة » الراحة على فراش من قلق	٥
المتحمسون الاوغاد	١٩
المدينـــة	٢٥
الكابوس	٣١
الخـــوف	٣٧
الضجيج	٤١
الجوارب	٤٥
اكتشاف	٥٣
دوائر التعب	٥٩
الاحذية	٦٧

رقم الايداع لدى مديرية المكتبات والوثائق الوطنية

(١٩٨٤/١١/٤٥٠)

«أنا متأكد ان عددا من القراء حين يطلعون على قصصك مجتمعة او منفردة سيقولون كثيرا عن مضامينها السياسية، سيأخذون عليك انها قصص عدمية عبثية تخلو من اي مضمون اجتماعي نضالي. . . الخ. أنا متأكد انهم لا يرون عندئذ موقعك وانت تقف على الحافة بين القلق المدمر والقلق المبدع، واعتقد انه ما زال لديك فرص كبيرة لتحسين مواقعك شرط ان تبقى هناك متماسكا كقطعة من صخر الحافة وجزءً منها، وبهذا أنفي العدمية والعبثية.

سالم النحاس

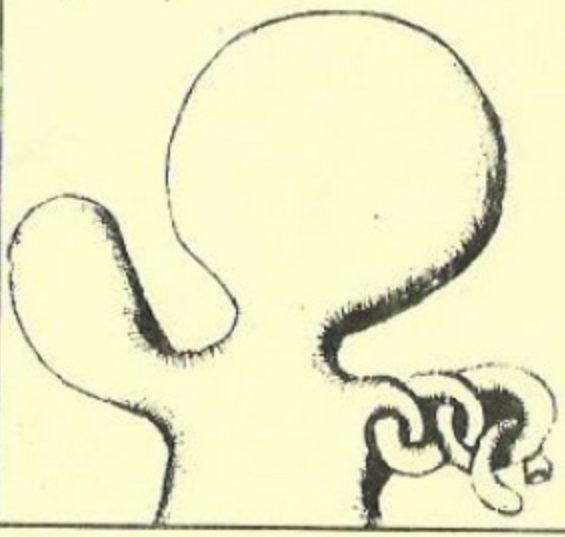

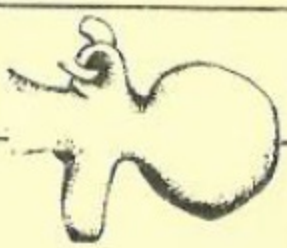

طباعة شركة المطابع النموذجية
تلفون ٩٣٧٤٠ ـ عمان / الاردن